اللغة والمجاز: نظرة أولية

تدور نقاشات في معظم المجموعات الأدبية المخصصة لقصيدة الهايكو أو الهكيدة منذ شهور على الفيسبوك. والاتجاه الغالب في آراء الكثيرين أن قصيدة الهايكو لا تحتمل المجاز. ونفهم من استعمالهم لكلمة المجاز أنها تعني الصور الشعرية مثل الاستعارة والتشبيه والتشخيص والأنسنة وما إلى ذلك. وسأتناول هذا الموضوع في عدة مقالات، وسأخصص هذه المقالة لإلقاء نظرة عامة على العلاقة بين اللغة والمجاز بوجه عام.

لو نظرنا إلى المعنى اللغوي لكلمة مجاز نجد أنها تحتمل الجواز بمعنى قبول استعمال القول لدى مستعملي اللغة وتحتمل التجاوز والتعدي: أي الخروج باللفظ أو التركيب اللغوي (وأؤكد على استعمال التركيب اللغوي هنا) إلى آفاق أو مجالات استعمال جديدة لإثراء اللغة وتوظيفها للتعبير عما لا تستطيع المفردات المعجمية أن تعبر عنه. وهذا الخروج هو خروج مؤقت بالطبع، لأن كثرة استعماله

opelkandi.com

تجعله يفقد مجازيته ويتحول إلى قول عادي في حاجة لاحقة إلى الدخول في مجالات لغوية وتعبيرية جديدة حتى يصير مجازا.

والمتأمل لمعظم ألفاظ المعجم في أي لغة يجد أن تعدد المعاني للكلمة الواحدة أو التركيب الواحد يدل على الطفرات المجازية التي مر بها هذا اللفظ أو هذا التركيب. فكلمة "عقل" على سبيل المثال كانت تشير في الأصل إلى الحبل، أو أي شيء آخر، الذي كان يستخدم لتقييد الجمل والحيوانات الأخرى كي لا تشرد أو تضل. ثم تم استعماله مجازيا للإشارة إلى عقل الإنسان لأنه يقوم بنفس الوظيفة، ثم العقل بمعنى الإدراك والبلوغ والتمييز، ثم تم استعماله في مجالات أخرى مثل العقل المدبّر للجريمة مثلا أو العقل المسيطر في العمليات الإلكترونية. وهذه الاستعمالات لم تعد مجازية الآن لأنها صارت شائعة على الألسنة وبالتالي تحولت إلى استعمالات لغوية عادية. وهذا التحول موجود ومقبول ضمنيا في مفهوم المجاز بمعنى الجواز: فقبول الناس للاستعمال

الجديد للفظ أو التعبير يوحي بإمكان شيوعه على الألسنة، وهذا الشيوع يقوم على مر الزمن بتحويل المجاز إلى حقيقة.

باختصار، المجاز بهذا المعنى جزء أصيل من أي لغة وتطورها ونستخدمه في الأدب والكتابة بوجه عام، كما يستخدمه عامة الناس في كلامهم اليومي دون أن يجدوا غرابة في ذلك، ودون أن يجد المتلقي/القارئ/المستمع صعوبة في تأويل/فهم هذا المجاز مادام مستعمله جاء به بدون تكلّف أو تقعُّر.

واللغة الأدبية بوجه عام لغة تقوم على التكثيف من ناحية الرؤية ومن ناحية توظيف إمكانات اللغة والعلاقات التي يمكن للمبدع أن يقوم بإنشائها بين الألفاظ المفردة، وبين التركيبات، وحتى بين الوحدات الكاملة من النصوص، كالعلاقة التي يمكن للشاعر مثلا أن ينشئها بين مقطوعة في القصيدة ومقطوعة أخرى، أو التي ينشئها الروائي بين فصل في رواية أصوات على لسان شخصية وفصل آخر في نفس الرواية على لسان شخصية أخرى.

وهناك بعض الأنواع الأدبية الفرعية التي تقوم كلها في مجملها على المجاز، فالأمثولة أو الخرافة مثلا – على سبيل المثال كليلة ودمنة – ليست مقصودة في حد ذاتها وإنما يشير النص ككل إلى عالم موازٍ خارج النص، وكأن النص ككل طرف من طرفي استعارة والطرف الآخر موجود خارج هذا النص في عالمنا السياسي والاجتماعي الذي نعيش فيه.

openkandl.com